أما أحمد بن فارس "أبو الحسين القزويني" المتوفي سنة ٣٩٥هـ، وهو أستاذ الصاحب بن عباد، المتوفي سنة ٣٨٥هـ، فقد خلع على مباحثه في نشأة العربية اسم: "الصاحبي في فقه اللغة، وسنن العرب في كلامها"، وذهب إلى أن اللغة إلهام وتوقيف، مستدلًّا بقوله تعالى: {وَعَلَّمَ آَدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا} . على أنه ضمَّن كتابه هذا بعض المباحث الهامة حقًّا في فقه العربية؛ كخصائص هذه اللغة، واشتقاقها، وقياسها، ومترادفها، ومجازها، واشتراكها، ونحتها، واختلاف لغاته ولهجاتها.

ونرى الثعالبي "أبا منصور عبد الملك بن محمد"، المتوفى سنة ٤٢٩هـ، ينشئ بعد ذلك كتابه "فقه اللغة" الذي لا تجد اسمه إلّا كالثوب الفضفاض عليه، فإنه لم يضمنه إلّا بعض المباحث القليلة التي يمكن أن تتعلق بهذا العلم، كإيراده بعض الألفاظ العربية التي نسبها أئمة اللغة إلى الرومية، أو بعض الأسماء القائمة في لغة العرب والفرس على لفظ واحد، أو الأسماء التي تفردت بها الفرس دون العرب، فاضطرت العرب إلى تعريبها أو تركها كما هي، أو الأسماء التي ماتت فارسيتها، مع أن عربيتها ما تزال مستعملة محكية؛ وهذه المباحث مبثوثة في الباب التاسع والعشرين من كتابه، ولا تشغل أكثر من خمس عشرة صفحة.

أما ابن سيده "أبو الحسن علي بن إسماعيل الأندلسي"، المتوفى سنة ٤٥٨هـ، فقد عرض في كتابه "المخصص" لبعض البحوث المتعلقة بنشأة اللغة العربية، وبالترادف والتضاد والاشتراك والاشتقاق، وتعريب الألفاظ الأعجمية، ونحو ذلك، والمخصص يقع في سبعة عشر جزءًا، وهو حسن التنسيق دقيق.

ويتوفر الجواليقي "أبو منصور، موهوب بن أحمد"، من علماء القرن السادس الهجري، بوجه خاص على دراسة "المعرب من الكلام الأعجمي"، وكتابه مرتب على حروف المعجم، ويتلوه البشبيشي المتوفى سنة ٨٢٠هـ بكتابه "التذليل والتكميل" لما استعمل من اللفظ الدخيل".

ثم يجمع جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١، من علماء القرن التاسع الهجري، كتابه العظيم "المزهر في علوم اللغة وأنواعها" من أكثر الكتب المتقدمة، ويزيد عليها بعض الأبحاث الجديدة، ولعل كتابه –بتنوع أبوابه، واتساع أغراضه– ألصق المؤلفات بفقه اللغة؛ ففيه تقرأ عن نشأة اللغات، وتداخلها، وتوافقها، والمصنوع والفصيح، والمستعمل والمهمل، والحوشي والغريب، والمعَرَّب والمولَّد، والاشتقاق والاشتراك، والترادف والتضاد، والنحت، والتصحيف، والتحريف، والشوارد والنوادر، وما اختلفت فيه لغة الحجاز ولغة تميم، ويقع في جزئين كبيرين.

وفي القرن الحادي عشر يعنى شهاب الدين الخفاجي خاصة بالألفاظ الدخيلة على العربية، فيؤلف في ذلك كتابه "شفاء الغليل، فيما ورد في كلام العرب من الدخيل".

نظريات نشأة اللغة

لا شك أن الفضل في نشأة اللغة الإنسانية يرجع إلى المجتمع نفسه، وإلى الحياة الاجتماعية. فلولا اجتماع الأفراد بعضهم مع بعض، وحاجتهم إلى التعاون والتفاهم وتبادل الأفكار، والتعبير عما يجول بالخواطر من معانٍ ومدركات، ما وجدت لغة ولا تعبير إرادي.

ولا شك كذلك أن اللغة ظاهرة اجتماعية تنشأ كما ينشأ غيرها من الظواهر الاجتماعية، فتخلقها طبيعة الاجتماع، وتنبعث عن الحياة الجميعة، وما تقتضيه هذه الحياة من شؤون

فليست المشكلة إذن في البحث عن الأسباب التي دعت إلى نشأة اللغة، ولا في البحث عمن أنشاها، وإنما المشكلة في البحث عن العوامل التي دعت إلى ظهورها في صورة أصوات مركبة ذات مقاطع متميزة الكلمات، والكشف عن الصورة الأولى التي ظهرت بها هذه الأصوات، أي: الأسلوب الذي سار عليه الإنسان في مبدأ الأمر في

وضع أصوات معينة لمسميات خاصة، وتوضيح الأسباب التي وجهته إلى هذا الأسلوب دون غيره.

وعلى ضوء هذه الحقائق سنناقش النظريات التي قيلت في نشأة اللغة، فنرفض كل نظرية تذهب في ذلك مذهبًا لا يتفق مع هذه الحقائق المقررة، أو تغفل المشكلة الرئيسية التي نحاول حلها.

هذا، وأهم ما قيل بهذا الصدد يرجع إلى أربع نظريات:

النظرية الأولى: تقرر أن الفضل في نشأة اللغة الإنسانية يرجع إلى الهام إلهيٍّ هبط على الإنسان فعلمه النطق وأسماء الأشياء، وقد ذهب إلى هذا الرأي في العصور القديمة الفيلسوف اليوناني هيراكليت ، وفي العصور الوسطى بعض الباحثين في فقه اللغة العربية كابن فارس في كتابه الصاحبي، وفي العصور الحديثة طائفة من العلماء على رأسها الأب لامي في كتابه "فن الكلام" والفيلسوف دوبونالد في كتابه التشريع القديم.

ولا يكاد أصحاب هذه النظرية يقدمون بين يدي مذهبهم دليلًا عقليًّا يعتد به٥. أما أدلتهم النقلية فبعضها يحتمل التأويل، وبعضها يكاد يكون دليلًا عليهم لا لهم. فالمؤيدون لهذا الرأي من باحثي العرب يعتمدون على قوله تعالى: {وَعَلَّمَ آَدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا} وهذا النص كماترى، ليس صريحًا كما يدعون؛ إذ يحتمل أن يكون معناه –كما ذكر ذلك ابن جني في كتابه الخصائص، وذهب إليه كثير من أئمة المفسرين: إن الله تعالى أقدر الإنسان على وضع الألفاظ. أما القائلون بهذه النظرية من الفرنجة، فيعتمدون على ما ورد بهذا الصدد في سفر التكوين؛ إذ يقول: "والله خلق من الطين جميع حيوانات الحقول وجميع طيور السماء، ثم عرضها على آدم ليرى كيف يسميها، وليحمل كل منها الاسم الذي يضعه له الإنسان، فوضع آدم أسماء لجميع الحيوانات المستأنسة ولطيور السماء ودواب الحقول: وهذا النص، كما ترى، لا يدل على شيء مما يقول به أصحاب هذه النظرية، بل يكاد يكون دليلًا عليهم. وفضلًا عن هذا كله، فإن هذه النظرية تغفل إغفالًا تامًّا

المشكلة الرئيسية التي تهمنا، وحدُّها في هذا البحث، والتي حددناها تحديدًا دقيقًا في صدر هذه الفقرة.